رسالة غبطة البطريرك صفير بمناسبة عيد الفصح المجيد

٢٠٠٤/٤/١١

وجه صفير امس، رسالة الفصح الى اللبنانيين والموازنة مقيمين ومنتشرين، وعنوانها "اما انت فلا تكون لك قيامة الحياة" مكابيين الثاني ١٤:٧". وهنا نصها:

"جاء في سفر المكابيين الثاني ان انطيوكس الملك القى القبض على سبعة اخوة، فأخذ يكرههم على تناول طعام محرّم عندهم، ويعذّبهم بالمقارع والسياط، ولمّا لم يذعنوا لامره اوقع بهم جميعاً، غير ان الرابع من بينهم اجابه، وهو مشرف على الموت، بقوله: "حبّذا ما يتوقعه الذي يقتل بأيدي الناس من رجاء اقامة الله له،اما انت فلا تكون لك قيامة للحياة".

حلم الانسان، منذ كان على وجه الارض، القيامة من رقدة الموت والخلود. ولهذا وقع ابوانا الاولان في المكيدة التي نصبها لهما الشيطان، على ما جاء في مستهل سفر التكوين، عندما قالت لهما الحية: "انما الله عالم انكما في يوم تأكلان (من ثمر الشجرة التي في وسط الجنة) تنفتح اعينكما وتصيران كآلهة عارفي الخير والشر"، أي خالدين.

هذا الحلم حققه السيد المسيح للناس بعذابه وموته على الصليب وقيامته ظافراً من بين الاموات. فعيد القيامة اذن هو عيد الحياة الباقية. يقول تعليم الكنيسة الكاثوليكية: "ان قيامة المسيح لم تكن عودة الى الحياة الارضية، كما كانت قيامة الذين اقامهم من الموت قبل الفصح على مثال ابنة يائيروس، وابن ارملة نائيم، ولعازر. هذه كانت اعمالاً عجائبية، غير ان من "اجترحت في جانبهم هذه العجائب، استعادوا، بقوة يسوع المسيح، الحياة الارضية العادية. وهم سيموتون مجدداً يوما ما. اما قيامة المسيح فهي مختلفة اختلافاً جوهرياً. فهو في جسده القائم من الموت، ينتقل من حالة الموت، الى حياة تقع وراء الزمان والمكان. لقد امتلأ جسد المسيح، لدى القيامة، من قوة الروح القدس. فهو يشارك في الحياة الالهية في حالة المجد، بحيث ان بولس الرسول استطاع ان يقول عن المسيح انه "رجل سماوي".

واذا كان المسيح قد قام، فهو لم يقم لذاته، بل اقامنا معه من رقدة الموت. لذلك نقول في قانون الايمان: "ونترجّى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي". ومصير الانسان يختلف عن مصير غيره من العجماوات. فهو "وان مات سيحيا، على ما أكد المسيح عينه. لقد تضامن معنا، فافتدانا بدمه الذي سفكه على الصليب، وغفر لنا خطايانا، وأعاد فتح باب السماء في وجهنا، بعد ان كان قد أغلق بسبب معصيتنا التي ورثناها عن ابوينا الاولين. وهذه هي الخطيئة الاصلية. والمسيح هو الوسيط الوحيد بيننا وبين ابيه السماوي، على ما جاء في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني الذي يقول: المسيح، الوسيط الوحيد، جعل على هذه الارض كنيسته المقدسة، وهو يدعمها، وهي جماعة ايمان ورجاء ومحبة، وجهاز منظور ينشر بواسطته الحقيقة والنعمة على الجميع. وبولس الرسول يقول ايضاً: "آمنا بذلك الذي اقام من بين الاموات ربنا يسوع المسيح، الذي أُسلم من اجل خطايانا، وقام ليبررنا"، ويؤكد في مكان آخر اننا "بعمادنا بموته، دفنا معه، حتى انه، كما قام المسيح من بين الاموات بمجد ابيه، هكذا نحن ايضاً، نسير حياة جديدة، وان كنا غرسنا معه في شبه موته، فهكذا ايضاً نكون في قيامته".

لذلك ان قيامة المسيح هي عيد الاعياد بالنسبة الى المسيحيين، لانها تذكرهم بأنهم خالدون، بعد الموت الجسدي، على مثال المسيح ومعه، في نعيم ابدي والى جانبه. وهذا معنى قوله لتلاميذه وعبرهم لكل مؤمن به اذا كان من اهل الصلاح: "أنا ماضٍ لاعدّ لكم مكاناً، ثمّ آتي وآخذكم اليّ، لتكونوا أنتم حيث أكون أنا. وقد عبّر احد المؤمنين عن قيامة المسيح بطريقة شعرية فقال: "لقد اخذ على عاتقه كل المساحات وكل الازمنة. فهم هنا، في نور الصباح، وقد انتصر من اجل كل الاصباح في التاريخ، وهو تاريخ يحوّله تجديداً مستمراً لكل الاصباح. فهو يخترقنا بنظره اللامتناهي الهدوء. ويرانا، ولكنه يرى عبرنا كل الذين لم يروه، ولن يروه. هذا المسيح هو تجلّي الابدي. فيه يتجلّى الابدي ليس كثوب: كجوهر عالمنا المائت".

أيها الاخوة والابناء الاعزاء،

من شأن عيد قيامة المسيح ان يرسل بعض شعاع نور في القلوب القابعة في ظلمة البؤس والفقر والتعاسة. واذا تنكر النـاس بعضهم لبعض، وتزاحموا على خيور الدنيا، فازداد الغني غنى والفقير فقراً، فان السيد المسيح الذي مرّ بأرضنا على مـدى ثلاث وثلاثين عاماً غيّر مفهوم الحياة. فنادى بالكفر بالذات، وبالاكتفاء بما قسم الله لكل من الناس ما يكفيه هو وعياله دونما طمع واستئثار. وعلّم بقوله ومثله كيف يجب ان تكون التضحية في سبيل الغير، ومارس المحبة الى حدّ الامحاء، يوم غسل ارجل تلاميذه وقال لهم: "ان كنت، وانا ربكم ومعلمكم، قد غسلت ارجلكم، فكم عليكم أنتم، ان يغسل بعضكم ارجل بعـض. لقد اعطيتكم بهذا مثلاً، فكما صنعت لكم تصنعون انتم ايضاً.

ونتساءل الى اي حدّ نضع تعاليم المسيح موضع العمل في حياتنا اليومية؟ والى اي مدى نستهدي بالمبادئ المسـيحية فـي حياتنا الاجتماعية؟ ولو فعلنا لكانت حالنا غير ما نرى ونسمع ونعمل. والمسيح يقول في انجيلـه بالتضـامن بيـن النـاس اجمعين، فاذا بنا قد اصبحنا شيعا وشراذم وجماعات، كل من افرادها يسعى في سبيل منفعته الخاصـة، ويتجـاهل منفعـة اخوانه، واهل بيته وجيرانه. لذلك طغت الانانية والاثرة وحبّ الذات، وغاب التعاطف والتوافق والتضامن. واستهان بنا من له مطمع بنا، فأصبح معظم الناس عندنا يشكون الفقر والبطالة وسوء الحال. وقلّت فرص العمل، وجرفت الهجرة الشـباب، وهم أمل المستقبل، وتراكت الديون. والدولة ترزح تحت اثقالها من دون ان تلقى من القيمين عليها من التفاهم والتضامن في ما بينهم ما يحفز هممهم على نجدتها وتجنيبها الكأس المرّة.

ونتساءل أين باب الفرج. ولماذا لا نتشبّه بمن كان أسوأ منا حالاً من البلدان، فحزم امره، وبدّل نهجه الوطني، ونظم اموره، واعتمد على ذاته، فتحسّنت احواله، واصبح مكفيّا، مزدهراً، بعدما كان يشكو الفقر والعوز. ولسنا في حاجة الى ايراد اسماء بلدان كان وضعها كوضعنا، فهي معروفة. وقد خرجت منه باتفاق ابنائها، واخلاصـهم لـها، وسـلوكهم طريـق العقـل، والانصاف، والحكمة.

ولا يمكننا الا ان نتعظ بما يجري حولنا من مآس، سواء أكان في فلسطين أم في العراق. وقد عرفنا منها ما لم نقوَ بعدُ على النهوض مما ورّطنا فيه، والعاقل مَن اتعظّ. وهناك استحقاقات تنتظرنا نأمل في ان نواجهها بـروح التجـرّد، والتضـامن، والخدمة العامة، والاخوة الصحيحة، وذاكرين انه لا يحق لاحد ان يسعد وحده، كما لا يجوز لاحد ان يشقى وحده. وهنـاك مثل يقول: "كلما ارتفعت نفس رفعت العالم معها". والعكس صحيح. فلنرفع عقولنا الى الله، ولنتقه في هذا الوطن الجريـح، لعلنا نرتفع معاً الى مستواه، فنعيده الى سابق عهده، فيطلّق التبعية ليأخذ مقعده حرّاً في عين الشمس، وينعم بما ينعم به سواه من بلدان مزدهرة بفضل تحملها مسؤولياتها بشجاعة تجاه نفسها في جوّ من المسؤولية، والسـيادة، والاسـتقلال النـاجز، والقرار الحرّ.

اعاداالله عليكم مقيمين ومغتربين عديد امثال هذه الاعياد وشملكم برضاه وبركاته".